مؤشرات الحس التراثي في شعر مصطفى الغماري

د. فاتح حمبلي
جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي-

الملخص :

تحاول هذه الدراسة أن تعاين تجلي مؤشرات الحس التراثي في شعر مصطفى الغماري من خلال القراءة الداخلية لنصوصه،دون أن تتقيد بمنهج محدد ، إنما تتغيا أن تفيد من المناهج التي تراها قادرة على إظهار رؤية الشاعر الخاصة للتراث و كيفية استحضاره في شعره برموزه و أعلامه لإسقاط تجربته الفنية عليه، وبلورة انفعاله من خلاله.

Résumé **:**

Cette étude se propose d'appréhender les manifestations du patrimoine dans la d'une méthode précise. Toutefois, elle vise d'une manière ésotérique à élucider la vision du poète propre au patrimoine et la conuocation de ses symboles pour les soumettre à son poésie de MUSTAPHA EL-KHOMARI à travers une lecture interne textuelle sans l'apport expérience esthétique et à la cristallisation de ses réactions.

مدخل :

إن اهتمام الشعراء المعاصرين بالتراث لم يكن لذاته ، أو لأن التراث كنز عظيم فحسب بل لأنه الوسيلة الأساسية التي تمكن الشاعر من الاستمرار في الإبداع والكتابة ، إذ بواسطتها يتاح له نقل أحاسيسه الوجدانية ، وتجربته الفنية إلى الجمهور المتلقي ، لما في هذا التراث من لغة مشتركة ، وقيم متفق عليها .

فالشعراء الجزائريون القدامى والمعاصرون ، لجئوا إلى التراث العربي والإسلامي واتخذوه المصدر الأول في إبداعهم الأدبي ، على تفاوت- طبعا - بينهم في درجة تفعيل معطيات هذا التراث في مواجهة واقع حياتهم .

والشاعر الجزائري مصطفى الغماري (*) واحد من هؤلاء الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين أضحى التراث في تجربتهم الفنية ضربا من الرؤيا الفنية التي تقوم على الحس التراثي

بديلا عن الرصد التاريخي ، ويتجلى الماضي في شعرهم ، بمثابة نبؤه ، أو حدس للحاضر والمستقبل ، كما يتجلى فيه التاريخي بمثابة تأويل إبداعي ، بكل ما يترتب على هذا التأويل من خصوصية ومن ثم يغدو الجدل بين الحاضر والماضي في فنه إلغاء للمواجهة بينهما وتوحد بينهما في الرؤية والموقف .

توظيف الغماري للتراث (الرؤية والموقف) :

توظيف التراث على اختلاف مصادره وألوانه في شعر الغماري لم يكن مجرد ظواهر كونية عابرة ، لم يعد لها تأثيرها في مسيرة حياة الشاعر أو مسيرة الشعب الجزائري ، بل أضحت صيغا وأشكالا إبداعية ، اكتسبت دلالات جديدة وتأويلات مغايرة ، فالشاعر الغماري ينقل من خلال هذا التراث طبيعة الأفكار ، والقضايا التي تمس شخصه ووطنه وتعبر عن رؤيته الشعرية وموقفه النفسي من قضايا عصره وواقعه ، يأتي في مقدمة معطيات هذا التراث تراث الثورة الجزائرية المجيد .

أ- الثورة الجزائرية الكبرى :

يعد الغماري من شعراء الصراع الفكري والحضاري في الجزائر إذ ليس من المبالغة إذا قلنا أنه أبرز الشعراء الجزائريين المعاصرين ، الذين حملوا على عاتقهم لواء الدفاع عن عروبة الجزائر وإسلامها في حلبة الصراع الدائر بين التيارات التغريبية والتيارات الوطنية والعربية ، وقد زاد من إخلاص الشاعر لفكرته الإسلامية واستماتته في الذود عنها ، هو مواكبته للصحوة الإسلامية المعاصرة ومعايشته لأحداثها في الوطن العربي و الإسلامي ، فمن خلال تتبعنا لأشعاره يظهر لنا مدى تعاطفه مع كل صوت إسلامي ، وكل نداء للحرية والاستقلال .

وبما أن الشاعر الغماري جزائري الأصل فلا شك أنه تحدث في شعره عن الثورة الجزائرية ، وتأثر ببطولاتها التي هزت كل أركان العالم وأصبحت مثلا يقتدى به في المقاومات الشعبية العربية وغير العربية.

فالشاعر في ظل أمجاد هذه الثورة المجيدة ، يعش التاريخ بوعي جديد ، وبحس تراثي وقاد ، كشف به نوايا المستعمر الفرنسي المستبد ، وتتبع فضح ادعاءاته وزيف شعاراته ، كما وقف على تفنيد الزيف الديني الذي ساد هذه الفترة التاريخية من كفاح الشعب الجزائري، ففضح أولئك الذين اتكأ عليهم الاستعمار في اتخاذ أقوالهم وأفعالهم آفيونا يخدر به الشعب باسم الدين ، " طبيعي أن يرتبط الشعر عند الغماري بفكرة الإصلاح في هذا الظرف العصيب ، ومن هنا اتجه الفكر إلى التركيز على فكرة الإحياء وكانت النظرة فيه سلفية تتجه إلى الماضي الذي يمثل التاريخ المحتذى به "(1)

ولعل أبرز منحى سلكه الشاعر في توظيفه لزخم تراث الثورة الجزائرية ، هو إضفاؤه المسحة الإسلامية على أحداثها خاصة ما يكشف عن ذلك الصراع المرير بين حركة الإصلاح الديني بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وبين فلسفة الاستعمار الصليبي القائم على فكرة الخداع حتى لا تتحرك العاطفة الدينية عند المسلمين ، فيهبوا للدفاع عن دينهم وأرضهم ومن مصلحة النصارى ألا يفهم المسلمون هذه الحقيقة " (2).

وخير ما يمثل لنا هذه الظاهرة النماذج الشعرية للغماري التي عبر فيها عن تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى ، موظفا أحداثها كشكل من أشكال التراث التاريخي ، وهو حين يتحدث عنها يصدر في شعره عن تصور ديني وسياسي ، فالحرب الدائرة رحاها بين الجزائر وفرنسا هي حرب عقيدة قبل كل شيء لقول الغماري في ذلك (3).

ورد صاحبك يا جـــزائر وهوى تطوف به البشائر
بنت قافلـة البشائـــــر والدرب ثائـرة وثائـر
نهلت من الإســـلام حمر تها مـن الشيـم البوائر
يا بنت عقبة في المضـــاء وبنت طارق في المفاخر

ولذلك فلا طالما استدعى الغماري أعلاما تراثيه ذات رمز ثوري خاص كطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع ، وغيرهما كثير ونسب إليهم جزائره ، مؤكدا أن مفاخرها المعاصرة هي من صنع ماضيها الحضاري ، فالجزائر ابنة الإسلام العظيم ، فالشاعر في أوج حزنه ويأسه يبث شكواه إلى الجزائر –ابنة عقبة- فيقول (4)

عدم أنـا بنت عقـ بة لا غياب لا حضور .
شاخت ينابيع الضيا ء ولفها الرهـق النكير .

فمأساته أن الجزائر زرعتها أيادي التغريب والغدر (رهقا نكيرا) " بعد أن جفت ينابيع ضيائها ، فالشاعر يغرق في حال من الحزن واليأس لولا أن الأمل الذي يشع في نفسه والوعد الحق الذي

يسعفه عند نهاية كل تجربة ألم يقول (5)

غدنا مشاوير الوصـــا ل الحلو والغدق النميـر
يخضر في دمه الضجرْ فيضيء للحلـم الأثير

وبين التطلع إلى هذا الغد الموعود والإحساس بالماضي المكتنز بكل الصور الثورية الجميلة تنمو جل قصائد الشاعر نموا ثائرا رافضا يقول (6)

وقضى الجهاد فمد أوراس شموسا من الغضب وامتد من أبعاد سبعا مضيئات خصب

بدماء من كانوا فكان الوعد يخترق الحجب أبناء عقبة كبروا يا خير أبناء وأب

ب- الثورة الإيرانية الإسلامية :

إذا كانت المراحل الأولى من تجربة الغماري الشعرية تمحورت حول الحديث عن الغربة الفكرية والنفسية ، التي دفعته إلى استيحاء رموز الثورة الجزائرية في جو من الألم والحزن سيطرت عليه نزعة من التشاؤم والتمرد أحيانا على حاضره القاتم فإن المراحل التالية من تطور تجربته الفنية والتي بدأت منذ أواخر السبعينيات ، قد أعادت لوجوده الحضاري معناه الحقيقي وأمدته بالقوة الكافية للرد على التحدي الحضاري الغربي ، وذلك من خلال تبنيه للثورة الإسلامية في إيران منذ بوادر ظهورها الأولى ثم عبر انتصاراتها وصولا إلى إسقاطها لنظام الشاه ومن ورائه أمريكا وكل قوى الاستكبار العالمي .

وقد تجاوزت القصيدة الغمارية في هذه المرحلة ضلال الحزن القاتمة وأجواء الآلام التي كانت ممزوجة في الغالب بالسوداوية إلى أجواء من الأمل المنشود في ثورة إيران المظفرة ، فالثورة الإسلامية في إيران تخطت بالشاعر من خط الدفاع إلى خط الهجوم ، وزادت في يقين الشاعر بانتصار فكرته التي طالما ناضل في سبيلها وقد حان له أن يراهن على هزيمة أعداء فكرته فيقول (7)

أراهن أن العالمين قبور وأنك في درب العصور حضور .

غدا يا فتى طهران بالضوء مرتفع غدا في لهاه العاشقين مطير

أراهن أن الضوء ملئ فواصيل وإن جن دولار ورجف زور.

يراهن بالثورة المنتصرة ، إذا أبصر بشباب إيران الذين فجروا ينبوع الثورة من جديد فسطع نورها فأحرق الدولار وأصاب أصحابه بالجنون .

والشاعر الغماري وهو يشيد مفاخر الثورة الإيرانية يستلهم التراث الإسلامي بكثرة في كل قصائده التي واكبت أحداث هذه الثورة ، فمزج بذلك الحاضر والماضي في تفاعل وانفعال قويين ، ووظف الشخصيات التراثية بكل ما تحمله من مرجعية في خضم الصراع الحالي بين أنصار العقيدة وأنصار الكفر ولذلك طفت على أشعاره أعلام الإيمان كالحسين بن علي وأعلام الظلم كيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف ومسيلمة الكذاب واستعار ألقاب هذه الشخصيات التاريخية كرموز للزعماء العرب المعاصرين ، هذه الرموز التي تمثل البعد الدموي والاستبدادي في تاريخ الأمة الإسلامية .

فما أشبه اليوم بالأمس ، فالمؤامرة واحدة ووسائل الشر في حربها على الإيمان هي نفسها ، وإن تغيرت الأمكنة والأزمنة فصفين الأمس تبعث أوجاعها اليوم يقول الشاعر (8)

وتحمل صفين أوجاعها ويجري في جرحنا ذو الفقار .

وزعماء اليوم يحيون نعرات القومية الغابرة من جديد في حربهم على الثورة (9)

يزنون بالتاريخ مسخا شائنا ما أهون التاريخ حين يضار
عرب وفرس والعداء مجدد كسرى يخوض لهيبها يزار

وأحزاب اليوم هم أحزاب الخندق الذين جمعت بينهم أواصر العداوة للنور لكن الإيمان هزم جنودهم بنوره الساطع(10)

وفي خليج جمعوا الأحزاب وأوصدوا دون الضياء بابا
والضوء لا توقفه الحدود كلا ولا تناوله القيود

ويعود الشاعر مرة أخرى ليكشف عن قوة الثورة المستمدة من قوة موقعة صفين التاريخية ، حين أنهزم فلول الغدر أمام قوة إيمان الإمام "علي" وأنصاره ، هذا الإمام هو نفسه إمام إيران اليوم الذي يتحرك وبيمينه النصر المشرق (11)

وتشرق الصفين ...ماذا ؟
أبرق يشق السحاب ...أم ذو الفقار ؟
بكف الإمام يميد النهار

والإمام رمز الهي، لا يقهر مهما اعترضت سبيله العقبات ، فمن معركة بدر الكبرى يستوحي قوته وإيمانه ومن صفين يقينه بالنصر (12)

لن ينام الحق والرمز الإلهي الإمام
ليس بعد الدمع يا خضراء إلا الإبتسام
دمعنا الرفض الصلاة البكر
والسجع المقاتل
ومدانا بدر إن جنت بصفين المهازل

وهكذا من طهران تشرق شمس الحق ويتجلى الحب أفراسا عتاقا (13)

وتجلى الحب في طهران أفراسا عتاقا .

كذلك يظهر في شعر الغماري ما يشده بقوة إلى انتصارات الفاتحين الأوائل، التي تحمل ملامح الامامية كرموز إسلامية معاصرة ، ويوظف بدر الكبرى في شوق إلى الملحمة المعاصرة للآيات الخضراء (14)

عنيت في طهران قافلة بدم الحسين تثور تضخر

آياتها الخضراء ملحمة بدريــة تشتاقـها بـدر

إنه سيف طهران لازال بكف الإمام يحمل الحب والأمل لمن عميت أبصارهم وقلوبهم (15)

سيف طهران لم يزل يحمل الحب والأمل

والشاعر وهو يعيش المقاومة ضد أنصار الردة الأموية ، يعاوده الحزن من جديد لكن سرعان

ما تنقشع غيومه حين يستحضر مدينة "قم " الثائرة (16)

على جرح " قم " يضيء الذملا لنا الكرم والظل والموسم

كما تلوح طهران بنور قرأنها المشع عبر ضباب الخليج القاتم [17]

تعاويذهم في الخليج ضباب وقرآن طهران كان المنار

وتتجلى قوة القصيدة الغمارية من خلال ديوان " خضراء تشرق من طهران " الذي يكاد أن يكون وقفا على الثورة الإسلامية في إيران ، فالشاعر يبدو منحازا كليا لخط طهران الثوري . قد غنى انتصاراتها ، وبكى شهدائها فكتب بحبر من نار ودموع ليعبر عن عظمة هذه الثورة ، التي زلزلت عروش الأوثان المعاصرة المتسربلة بلباس الحضارة الزائفة يقول [18]

حي الجراح التي في عمقها النار وعبر أفاقها تمتد أقمار

وحي من بالعرف الأخضر قد صنعوا دربا تعانق فيه الورد والغار

فجر الأئمة معقود بألف غد من أظلمت في مرايا الشرق أنوار

وكف من هذه تبغيك يا وطني سواء وتزرعها " لات" وعشتار

تآمروا فالربوع الشم مهزلة وشمخة الكبرى بعشي وإبكار

تآمروا فجياد الفتح واجفة يبيعها بالمزاد الحر سمسار

إن يوغل الصمت في أبعادها رهقا فوجه طهران إيمان وإصرار

عد بوعدك موصل الرؤى غدق ووعد الحق يا حسناء أقدار

فالغماري وهو يرثي شهداء الثورة الإيرانية يعيد إلى الوجود بعث الرموز التراثية ، لتظل شاخصة حية تحفز الهمم ، وتستنهض العزائم الخور . ففي رثائه آية الله بهشتي إثر اغتياله يستحضر معه صورة الشهيد الخالد في وجدان الشيعة " الحسين بن علي " رمز التضحية في سبيل الحق ، رمز التحدي للطغيان في صورة مشبعة بظلال العشق الصوفي للشهادة يقول (19)

قتلوك يا سيف الحسين ويا أصالة ذي الفقار

قتلوك يا رمز الشهادة في مسافات الفخار

أنت الخلود وقاتلوك الليل يصلبه النهار

فالشاعر حين يحرض على الثورة ، يلتفت إلى طهران مطالبا بالمزيد من العطاء وتقديم قوافل الشهداء رموز الخلود والفخار ، إذ بدمهم الطاهر تورق أشجار طهران الخضراء لقوله (20)

طهران يا فتحا جديدا تاه بالفتح التليد
مدي على درب الشهداء ألف نصر ألف عيد
كوني " بهشتي" يا سرايا الله يا ثأر الشهيد
لن يطفئوا نور السماء النور يعشقه الخلود
هذه جوارحنا عطاش وإننا قدر الصمود
قدر التحدي نحن من صنعوا الشهادة في الوجود .

المتتبع لأشعار الغماري تستوقفه كثرة استدعائه للشخصيات التاريخية خاصة تلك الشخصيات المنتسبة إلى آل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهل يعني هذا أن الغماري يصدر في شعره عن مذهب الشيعة الإمامية ؟ أم أنه فوق المذاهب يحلق في سماء الإسلام الرحبة . يجيبنا عن تساؤلاتنا فيقطع الشك باليقين قائلا:

قالوا الإسلام السني قلت الإسلام الإسلام
قالوا الإسلام الشيعي قلت الإسلام الإسلام
في رحبته في دوحته يتصافى شيخ وإمام
في درب الوحدة عزتنا يا "قم" الكبر ويا"شام"

فالشاعر يؤمن في هذه التقسيمات المذهبية هي من صنع الأعداء يستهدفون من ورائها تمزيق وحدة الأمة الإسلامية ، وتصريف عزائم الشباب في صراعات جوفاء لا تخدم إلا مصلحة أعداء الإسلام لقوله (21)

ما بال الكفر يفرقنا ولكم جمعنا أرحام
قتل الطاغوت يمزقنا قوميا بئس الأوهام
زعموا أن أمم شتى عرب أفغان أعجام .

فالدين في وعي الشاعر ليس في الأشكال والألوان ، ولا في الصور ، ومضغ الأقوال إنما الدين الحق أقوال تدعمها أفعال لا صراع وجدال (22).

الدين في الأقوال والأفعال وليس في الألوان والأشكال
أخاف أن بينكم جيوبا تشيع في صفائهم عيوبا
تفتعل الصراع والجدال وتزرع السموم والوبال
تحرم الشعور والأشعار وتعشق التاريخ والأفكار

الشعر في أوهامها ظلال والشعر في أبعادها نضال

وما يثبت عدم تمذهب الغماري لأي مذهب إسلامي بعينه ، هو حرصه على وحدة المسلمين في كل العالم وليس أدل على ذلك من مزج الشاعر بين التغني للثورتين الإيرانية والأفغانية ، ففنى لطهران وكابول معا في نشيد مشترك ، فالمسلمون هنا وهناك جسدا واحد وذات الشاعر تحتضن هؤلاء وأولئك وتجعل من جهاد الجميع عرسا إسلاميا واحدا يمتد بأيامه الطويلة المليئة بالانتصارات والروائع والبطولات (23) **يقول في ذلك الشاعر** (24)

غنيتها لا هور صامدة رغم الجراح جبينها البكر
غنيت في طهران قافلة بدم الحسين تثور وتخضر

ج- الأحداث *التاريخية* الإسلامية :

إن الغماري شاعر ذو حس تاريخي تراثي حاد ، فهو دائما تحت وطأة الموروث التراثي ، يملئ عليه حسه ووجدانه . فالشاعر يجد في الأحداث التاريخية الإسلامية والأعلام المكانية رموزا للتعبير عن تجربته الشعرية ومعادلا موضوعيا لواقعه و حاضره ومن ثم حين يستدعي هذه الأعلام التاريخية يستحضر معها أبعادها النفسية والروحية فيكررها في سياقات لا يقف فيها عند الزمن الماضي ، بل يتخطاه إلى الزمن المطلق ولهذا تكون بدر وصفين وحطين والقادسية واليرموك وكربلاء وغيرها من الأماكن التراثية رموزا خالدة تحمل تاريخ أمة ، وتنبئ عن ميلادها في المستقبل القريب .

1- غزوة بدر :

يجد الغماري في غزوة بدر الكبرى وسيلة لزرع الأمل ، واستنهاض الهمم والامتلاء الروحي بالأمجاد التراثية الفذة ، فيستحضر ظلال هذه الغزوة مصحوبة بمعاني انتصار المستضعفين على الأقوياء المستكبرين بالفضل الإلهي ، فبدر يستوحيها الشاعر كرمز مكاني ويتفنن في توظيفها بأساليب مختلفة فتجيء عنده في صور " كوعدك البدري " "حدث عن بدر" أو "بدري المسافات " وربما يسقط الشاعر هذا الرمز التاريخي على حاضره كما يقول (25)

تسافر كل المرايا معي
وتهز أبدر الهوى بالسجون

فبدر هنا تحركت بكل زخمها التاريخي في واقع المحنة المعاصرة وتحدت رموز الطغيان بالثورة والرفض، وبدر هي التي أضفت على أوراس الجزائر قدسية المكان وطهر الثوار (26)

وأوراسنا بالجراح تثور
وأشواقنا في مخاض الرمال تثور
لتولد في زمن الردة الطبقي مسافات بدر
وتورق في زمن العربي والاستلاب
بساتين طهر

يربط الشاعر بين حلقات التاريخ ، ويمزج المراحل الحضارية للأمة الإسلامية ، موظفا لها بصورة جديدة تحمل رؤيته الخاصة يقول (27)

ألف بدر تزهى بمليون مهر
أين منها زيادهم وهشام ؟

فبدر هنا تتولد منها ألف بدر ويمتد من هذا التوالد مليون مهر محمدي ، فالشاعر يحسن الجمع الذكي بين بدر والأوراس في نغمة ملحمية توحي بمتانة التواصل الحضاري بين تاريخ الأمة وحاضرها (28)

ملامح الفجر يا أوراس أعرفها بدرية الوجه كم غنى لها الغار
غنى فاروق في التاريخ موسمنا بدر وتفرع بالقرآن بشار

الغماري يتخذ من أوراس رمزا بدريا ليوحي أن الثورة الجزائرية المباركة ما هي إلا سلسلة من غزوات الإسلام القدسية .

2- معركة القادسية :

جعل الشاعر الغماري من هذه المعركة التاريخية بنتا لبدر وقد تأثر بأمجادها تأثره ببدر إذ يستحضرها في جو من الفخار والاعتزاز يقول (29)

وللقادسية دقوا الطبول ويرفض "سعد" الوجوه الصغار
سليلة "بدر "هي القادسية يا من يدق الطبول انتصار

فالشاعر يعتز في هذين البيتين بمعركة القادسية " التي هي جديرة أن تكون عبرة للتاريخ لأنها خاتمة عصر وفاتحة عصر ، رفعت مملكة فتية على أنقاض مملكة عجوز فغيرت وجه الشرق القديم وأبدلته دنيا بدين "(30)

3- معركة اليرموك :

كان للنصر الذي حققه المسلمون على الروم باليرموك سنة 13 هجرية يوم تحطمت جيوش هرقل أمام قوة المسلمين أثارا بالغة في وجدان الشاعر الغماري ، هذه الآثار النفسية التي دفعته إلى الحلم بالنصر للثورات الإسلامية الحديثة كما هو الشأن عندما يتغنى بالثورة الأفغانية وبأعلامها يرموكا تارة وبدرا تارة أخرى يقول (31)

يا راية الأفغان شامخة لا تركعي للغيهب المر
يختال تاريخ الجهاد على أيامك القدسية الكبر
تصحو الملاحم في مسافتها حدث عن اليرموك عن بدر
غنيت في أعراسك العمر ألم يثور لوعدك البدري
بالحب واعدة سنابله بالضوء بالأطفال بالشعر

4- معركة صفين :

يعد الغماري معركة صفين التاريخية هي الحق الفيصل للخلافة الإسلامية الحقة وإذا كان الشاعر يؤثر "عليا" على "معاوية" ، فهذا انطلاقا من قناعته بأحقية "علي" كرم الله وجهه في الخلافة ، وبظلم معاوية وطغيانه واغتصابه لحق غيره ، وقد لمح إلى ذلك في قصيدة " يا غارة الله " التي أشاد فيها بالإمام "الخميني " الذي يراه بديلا عن الإمام "علي" وأحفاده جاعلا من الثورة الإيرانية بدرا تارة وصفين تارة أخرى ويعرض من خلالها الذين باعوا تراثهم وضمائرهم في سبيل عروش مهتزة وعيشة ذليلة ، فهؤلاء يمثلون بخزيهم وظلمهم معاوية بن أبي سفيان في مناصبة العداء لآل البيت يقول الشاعر (32)

خط الإمام وجن الغدر ملتهبا لما رأى الفتح موصلا بالغار
خط الإمام بدم الكنز إصرار وسيفه في القراع المر تبار
خط الإمام من القرآن نقرأه لا أمت فيه ولا إنكار
خط بصفين باسم الله سلكه وأن تحاماه باسم اللات جبار
ما كان إلا هوى خضراء في دمه وحب خضراء أسرار وأسرار
تذوب فيه ملايين مجاهدة تذوب ألف وتصحو عبره الدار

5- واقعة كربلاء :

يظل الشاعر يتأسف ويتألم ويكتوي كلما طالعته واقعة تشبه كربلاء أين قتل الحسين بن علي - رضي الله عنه- حيث يقول :

وهم قتلوا الصدر واكر بلاه ستبقى جراحك ريحا ونارا

فكربلاء عند الشاعر أم تلد الثوار ، وتودع الشهداء منذ أن خلدها دم الحسين الذي روى بدمائه أرضا أخضرت أوراقها فنمت ملايين الشهداء من المسلمين أمثال الحسين .

د- توظيف الشخصيات التاريخية :

شاعت في الشعر المعاصر ظاهرة توظيف الشخصيات التاريخية واتخاذها قناعا للتعبير عن التجارب الشعرية الحاضرة ، لما في هذه الشخصيات من قوة الرمز والإيحاء ، فاستدعاء الشخصيات التراثية يستدعي بعث الماضي في الحاضر وتكثيف الزمن الممتد في لحظة الإبداع ، كما انه وصل بين الأجيال الراهنة جذورها السابقة.

ومن بين الشخصيات التاريخية أكثر حضورا في شعر الغماري شخصية الحسين بن علي – كرم الله وجهه-

1- شخصية الحسين بن علي :

تكاد تكون شخصية الحسين بن علي أكثر الشخصيات التراثية شيوعا في شعرنا المعاصر ، فقد رأى الشعراء في شخصية الحسين المثل الأعلى لصاحب القضية النبيلة ، الذي يعرف سلفا أن معركته مع قوى الباطل خاسرة لكن مع ذلك لا يمنعه صوت الحق من أن يبذل دمه الطهور في سبيل قضيته العادلة ، موقفا أن الدم هو الطريق الذي يحقق به الانتصار والخلود لقضيته وأن في استشهاده رمزا للتضحية في سبيل نصرة الحق الضائع .

وجد الغماري في شخصية الحسين معينا لا ينضب للتعبير عن مشاعره المعاصرة ، كما استدعى في شعره شخصية يزيد بن معاوية الطرف النقيض لشخصية الحسين كمعادل لطرفي الصراع بين الحق والباطل .

فيعمد إلى استنطاق الأحداث التاريخية المرتبطة بهذه الشخصيات لتجسيد فكرة الصراع الذي يظل فيه الشاعر طرفا مظلوما كالحسين ، وثائرا مثله ولكن بلسان الأمة لا بلسانه الفردي " فالمتأمل في شعر الغماري يستشعر أنه يمتلئ إحساسا بالمظلومين والغبن ليس بكيان الفرد وإنما بكيانه كأمة "(34). وهذا الإحساس بالظلم يتجسد من خلال رمز الحسين بصور عديدة وفقا لموقفه النفسي وتجربته الشعرية الخاصة يقول (35)

في كل كوكبة حسين في كل مجزرة يزيد
وتظل تهتف يا حسين تظل تراثي يا شهيد

وقد يرد كل من الرمزين بصورة أخرى في شعر الغماري ، فيأتي الحسين رمزا لمقاومة العدوان في حين أن يزيدا رمزا للانتهازية التي تحاول أن تبني مجدا كاذبا على جماجم الشهداء .

يقول الشاعر(36)**:**

و علـى الجنوب ملاحم و ملامح و على الشمال قصيدة و نزار
و علـى الجنوب دم الحسين مقاتلا و على الشمال تزلف و فخـار

و قد أنجزت المقاومة الإسلامية ملاحم و بطولات مدهشة دفعت بعض الشعراء إلى تبني الجهاد الحسيني بعدما أعياهم البحث عن رمز للمقاومة يعيد للأمة كرامتها، و يكون مصدر الهام لشاعريتهم و لهذا نجد الغماري لا يجمد رموزه بل يكيفها وفق تجربته الشعرية لتستجيب لأبعاد رؤيته الفنية ومن ثم فالحسين يمثل نموذجا للتضحية و الفداء في حين يمثل يزيد صورة للطغيان و الجور.

و في توظيف الغماري لشخصيتي الحسين و يزيد نجده كثيرا ما يشير إلى شجرتي النسب المختلفتين فنحن لا نذكر محمدا - صلى الله عليه و سلم- إلا و يسابقنا اسم أبي سفيان و لا نذكر عليا إلا مقرونا بمعاوية، فقد يخاطب الشاعر أبا سفيان ليوحي برموز الباطل ، حيث تحاصر رموز العدالة كما في قوله (37)

قم يـا أبا سفيان هـذا عصرك الأموي ثار
أبناؤك الطلـقاء كانـوا فالزمـان دم ونـار
وعلى الخليج تمرسوا بالرفض وافتعلوا القرار

فالرمز هنا يمتد إلى جذر النسب حيث النسب الأموي من أبي سفيان إلى يزيد بن معاوية الذي يمثل نقيض النبوة ، أنهما " شجرتان مختلفتان أصلا وروحا ومنهجا ، شجرة عبد المطلب وشجرة أمية بن عبد شمس ، شجرة إبراهيمية مباركة ، وشجرة ملعونة خبيثة ، وللغماري إحساس عميق بالفارق بين سمات هاتين الشجرتين فيكثر من إيراد أعلامها معا مقترنين في جو من التضاد الشعري الحافل بالمعاني " (38)

نستطيع القول أن توسع الشاعر في إيراد النسب الأموي يعزى إلى تطابق هذا الرمز التاريخي مع واقع الحكم العربي اليوم ، يتجلى ذلك في قول الغماري (39)

قتلـوا حسين أيا وشم الضحى مـزق تلـم جراحـه الأطيار
قتلـوه باسـم الناكثين وإنـه لم يعلمـوا مـدى يصبح ثار
يا امة ضحكت وحق لها البكاء والحاكمـون " أميـة " وتتـار

بهذا يكون الشاعر قد بكى شهداء الإسلام من خلال الرمز الحسيني ، فكما سقط الحسين في كربلاء شهيدا مخضبا بالدماء الزكية ، وذهب ضحية الخداع ، ونقض العهود ، يسقط اليوم على امتداد العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه ملايين من الشهداء في صمت

رهيب ، ومكر كبير حيث تبدو براعة الشاعر في نسج هذا التوافق بين الماضي والحاضر ، بين التاريخي والواقعي .

وتعد " حسينيات " الغماري من أشجى وأرق أشعاره وقد صدر للشاعر في السنوات الأخيرة ديوان شعري صغير الحجم يضم بعض هذه القصائد (40)

وهكذا بظل الحسين في قصائد الغماري رمزا للتأثر الأعظم وتراجيديا الظمأ والشهادة في كربلاء يأخذ موقفا متميزا في مسيرة الشهادة من وجهة النظر التاريخية والفنية ، فقد أضحى النداء باسمه إشارة رمزية للغضب والحزن ، والشهادة في أعمق أبعادها الدينية والسياسية ، فمأساة الحسين التاريخية جامعة لأنواع شتى من مآسي الإنسان ، في جو القيظ والعطش ، والقسوة والقتل الجماعي وجز الرؤوس ، هناك مأساة الجنون البشري ومأساة القتل المجاني ، وكذلك مأساة المروءة والفضيلة .

فالحسين أكبر من الحياة ولعله لكبره وعلوه خارج الدائرة التي يمكن للمرء ضمنها أن يتوحد مع البطل رغم تطلعه إليه ولذا يكون التعبير الفني عنه قاصرا على مداه الفاعل (41)

2- شخصية الأمير عبد القادر : (*)

من الأعلام الثورية التي شغلت حيزا لا بأس به ، في القصيدة الغمارية وتكررت كثيرا . أمير الجهاد الجزائري في العصر الحديث " الأمير عبد القادر " ولعل السبب الذي جعل الغماري يعنى بأبي الجهاد الجزائري ليس كونه رجلا جمع بين السيف والقلم فحسب بل هناك بعد آخر في شخصية هذا البطل ، وهو الجانب الصوفي الذي يحبه الغماري وينساب إليه بتلقائية ، حيث أنه خصه بديوان نستطيع تصنيفه ضمن شعر المديح إعجابا بهذا الرمز الشاعر ، الذي وحد بين السيف والقرطاس والقلم .

في القصيدة الأولى المثبتة في ديوان " قراءة في آية السيف " نكتشف أبعاد الجهاد الإسلامي في عهد الأمير عبد القادر ، حيث يستخدم الغماري لغة مباشرة وسردية وظف من خلالها بعض الرموز التراثية كشخصية المسيح عليه السلام وأمه مريم البتول ، فالقصيدة مع طغيان السردية التقريرية على أساليبها ، إلا أنها جسدت جهاد الأمير عبد القادر بكل أبعاده الدينية والسياسية يقول الشاعر(42)

رقصوا علـى أشلائها زمنا وطاب لهـم حبب
حضروا فكان القهر يغـ تال المسافـة والرعب
باسم المسيح تنـمروا كم باسمه قضـي الأرب

للطهر مريم للســـلا م وليدهـا لا للحـرب
كم باسمه قتل السـلا م وباسمه اعتصـر العنب
عيسى حنانـك إن نثـ ر فلدينهم ثـار العـرب
الحر يثـأر إن أهيـ ن ولا ينـام علـى الغلب

وكم حاولت أم البنين أن تثني عزيمة الفارس المغوار إلا أن نداء الواجب أقوى في قلبه من نداء العاطفة (43)

أم البنين سؤالها عتبـى ونجواها عتب
عن فارس بالكير توج لا أكاليل الذهب

وتمتد يد الغدر الداخلي والخارجي لتطفأ ثورة الأمير العارمة ، إلا أن خيله بقيت قوية العزيمة والشكيمة تتحدى في صبر وثبات حتى النهاية (44)

وقضي الأمير مجاهدا بين التآمر و الريب
يشاء لونه و انهم سؤل يلوب و يصطخب
و قضى الأمير مجاهدا بين الكتائب و الكتب
لولا التآمر ما أنثنت خيل الأمير و ما اغترب

و مضى الأمير بعد أن دخل التاريخ من بابه الواسع يعلم الأجيال اللاحقة عشق الحرية ، و حب الثورة في سبيل المبدأ و الوطن (45).

و مضى الأمير و مالـه غـاي سواك و إرب
لـم ينـأ عنك وهنـا إلا إليـك و لا انتسـب
و يكاد يفنى في ارتكاض العشق خاطرة و لب
أنت الـتي عرفتـه كيف الصبابـة تلتهب

هنـاك شخـصيات تراثيـة أخـرى اسـتدعاها الغمـاري فـي شـعره إلا أننـا نكتفـي بالشخصيتين السابقتين اللتين جسدتا في شعره التعانق الحميم بين التيار الوطني و التيار القومي الإسلامي.

خلاصة القول :

نخلص في نهاية المطاف إلى أن الشاعر مصطفى الغماري صاحب حس تراثي و تاريخي مرهف يجيد قراءة التراث قراءة واعية و يتفنن في انتقاء رموزه التراثية و أحداثه التاريخية بما ينسجم مع واقعيه النفسي و رؤيته الفنية و الفكرية، فقد كان الغماري صاحب رؤية شعرية متميزة بموقف فكري رسالي خاص ، و لذلك جاءت أشعاره متفردة في مواقفها من

التراث و التاريخ لأنه ببساطة يرى أن الذات الحضارية للأمة الإسلامية في العصر الحديث لم تضع قسماتها، و تتميع ملامحها إلا بسبب التنكر لتراثها أو التبرؤ من جذورها بدعوى التحرر من أسر الماضي أو اعتبار القديم قيدا يجب كسره(46).

فالغماري مع وفائه لرموزه التراثية، إلا أنه من أشد الشعراء الجزائريين حساسية ضد المستلبين باسم التراث المنكفئين على أمجاده ، الهاربين إلى قوقعة التاريخ بلا وعي فعال ، فالالتجاء إلى التراث و الاحتماء بالتاريخ ينبغي أن يكون حصنا للشعراء و للأمة من الانكسار الحضاري في مواجهة المد التغريبي المعاصر.

تمكن الغماري بموهبته الشعرية الفائقة من صبغ تجربته الشعرية بروح العصر بعد أن منحها دفقا تراثيا متجددا و متساوقا مع مواقفه و لذلك وفق الشاعر في التوحد مع شخصياته التراثية المستدعاة في شعره بعد أن وجد في كل ملمح من ملامحها مقابلا لبعد من أبعاد تجربته الفنية، حيث نجح الشاعر في أن يجعل من التراث بكل رموزه المكانية و الشخصية إطارا عاما لتجربته المعاصرة برمتها تستوعب كل أحاسيسها ونبضاتها دون أن يشعرنا بأنها مقحمة على وجدانه أو مفروضة على فكرته.

استطاع الشاعر أن يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار و القضايا و الهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي و من ثم فقد عكست طبيعة المرحلة التاريخية و الحضارية التي تعيشها الأمة اليوم بكل احباطاتها وخيبة آمالها في من يتولون شؤونها، و في الوقت نفسه تحمل بعض الشخصيات المستدعاة بريق الأمل في الخروج بالأمة من هزيمته و التخلص من سيطرة القوى الجائرة على مقدرتها و إرادتها.

هوامش الدراسة

(*) ولد الشاعر مصطفى بن محمد بن علي احمد بن محمد الصالح بن الغماري بتاريخ 1948/11/16 بقرية تابعة لدائرة سور الغزلان –الجزائر- من أسرة فقيرة متدينة، جمعت إلى التدين التحصيل العلمي لعلوم اللغة و الدين ، حفظ ما تيسر له من القران في صباه، انتسب إلى المعهد الإسلامي بحسين داي بالعاصمة، حصل على شهادة الأهلية به، سافر إلى ليبيا سنة 1966 فدرس بجامعتها الإسلامية، وحصل منها على شهادة الثانوية العامة ، عاد إلى الجزائر فأشتغل أستاذا بكلية الآداب منذ 1979.

للشاعر دواوين كثيرة بلغت 20 ديوان من مطبوع و مخطوط اشهرها " يا خيل الله اركبي "، "قراءة في زمن الجهاد" ، "عرس في مأتم الحجاج"

كما له دراسات حول تحقيق بعض المخطوطات كتحقيقه لشرح المقدمات في علم الكلام لابن عبد الله السنوسي التلمساني ، تحقيق المدخل إلى علم العقائد للمؤلف نفسه ، تحقيق الرسائل الكبرى في التصوف لابن عباد النفري الأندلسي .

(انظر: جريدة العقيدة الاسبوعية تصدر عن مؤسسة

النصر للصحافة – قسنطينة - العدد 06 1990/10/13)

(1) الركيبي ،عبد الله .الشعر الديني الجزائري الحديث . ط1 . المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر؛ 1981م .ص 561.
(2) سعد الدين ، السيد صالح . احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام . مكتبة رحاب الجزائر.(د ت) . ص.25
(3) الغماري ، مصطفى . ديوان ألم وثورة. ط1.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر؛1985م. ص 40.39
(4) الغماري، مصطفى . المصدر نفسه. ص26
(5) الغماري، مصطفى . المصدر نفسه . ص27
(6) الغماري، مصطفى . ديوان قراءة في آية السيف.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.الجزائر؛1983م.ص17
(7) الغماري، مصطفى . ديوان خضراء تشرق من طهران . مطبعة البعث. قسنطينة ؛ 1980م. ص75.
(8) الغماري، مصطفى . ديوان قراءة في زمن الجهاد . ط 1 . مطبعة البعث . قسنطينة ؛ 1980 م . ص 50
(9) الغماري، مصطفى . ديوان عرس في مأتم الحجاج . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر ؛ 1983 م . ص 14
(10) الغماري، مصطفى . قراءة في آية السيف . ص 101
(11) المصدر نفسه . ص 28 .29
(12) المصدر نفسه .ص 25.24
(13) المصدر نفسه . ص 75
(14) الغماري، مصطفى . ديوان حديث الشمس والذاكرة . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ؛ 1986 م . ص 103 .
(15) الغماري، مصطفى . عرس في مأتم الحجاج . ص 26
(16) المصدر نفسه . ص 29
(17) الغماري، مصطفى . خضراء تشرق من طهران . ص 99. 101
(18) المصدر نفسه . ص 99
(19) المصدر نفسه . ص 109 .110
(20) الغماري، مصطفى . عرس في مأتم الحجاج . ص 95
(21) المصدر نفسه . ص 111
(22) الغماري، مصطفى . قراءة في آية السيف . ص 111 . 112
(23) الغماري ، مصطفى . قراءة في زمن الجهاد . ص 12
(24) الغماري ، مصطفى .عرس في مأتم الحجاج . ص 88
(25) الغماري ، مصطفى . قراءة في آية السيف . ص 12
(26) الغماري ، مصطفى . ديوان حديث الشمس والذاكرة. ص 9
(27) الغماري ، مصطفى . قراءة في آية السيف . ص 12
(28) الغماري ، مصطفى . خضراء تشرق من طهران . ص 42
(29) الغماري ، مصطفى . عرس في مأتم الحجاج . ص 43
(30) البستاني ، بطرس .معارك العرب في الشرق والغرب . ط1 . دار الجيل . لبنان ؛1979 م . ص 14
(31) الغماري ، مصطفى . ديوان حديث الشمس والذاكرة. ص 11
(32) الغماري ، مصطفى . عرس في مأتم الحجاج . ص 101 . 103
(33) المصدر نفسه . ص 42

(34) شلتاغ ، عبود شراد .الغماري شاعر العقيدة الإسلامية. تيارت . الجزائر : 1985 م . ص 75
(35) الغماري ، مصطفى . عرس في مأتم الحجاج . ص 96
(36) المصدر نفسه . ص 13.12
(37) المصدر نفسه . ص 68
(38) شلتاغ ، عبود شراد . المرجع السابق . ص 44
(39) الغماري، مصطفى . عرس في مأتم الحجاج . ص 18
(40) الغماري ، مصطفى . بين يدي الحسين . ط1 . مؤسسة المعارف للمطبوعات . بيروت .لبنان :1994
(41) الكركي ، خالد . الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث . ط1 . دار الجيل . مكتبة الرائد العلمية 1983 .ص 102
(*) الأمير ، عبد القادر : ولد سنة 1808 في قرية (قيطنة) بولاية وهران ، قاد المقاومة المسلحة ضد المحتل الفرنسي منذ سنة 1830 ، بعد فشل ثورته سجن ثم أطلق سراحه ، ارتحل إلى تركيا ثم استقر بدمشق وتوفي بها سنة 1883 . نبغ في الفقه وعلم الكلام والشعر ، من أشهر آثاره كتاب المواقف في التصوف ورسالة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل وديوانه الشعري . من أشهر مواقفه دفاعه عن المسحيين خلال المذابح التي دارت في بلاد الشام سنة 1860 (ينظر إسماعيل العربي المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر : 1982 م ص 221)
(42) الغماري ، مصطفى . قراءة في آية السيف . ص 13.12
(43) المصدر نفسه . ص 14
(44) المصدر نفسه . ص 15
(45) المصدر نفسه . ص .ن
(46) بلقاسمي ، مصطفى . الإسلامية في شعر مصطفى الغماري . رسالة ماجستير . جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة . الجزائر : 1995 . ص 24.